

قراءة جغرافية وتاريخية في مدينة ندرومة العتيقة
APROXIMACIÓN GEOGRÁFICA E HISTÓRICA
A LA CIUDAD DE NEDROMA

بن زغادي محمد
جامعة تلمسان

MUHAMMAD BEN ZAGADI
Universidad de Tlemcen

ملخص

يعد هذا المقال عرضاً موجزاً عن المدينة التاريخية والأثرية ندرومة، حيث سنسلط الضوء فيه على أهم خصائصها الجغرافية التي جعلت منها حاضرة مرموقة بين حواضر المغرب الإسلامي، كما سنتطرق إلى سبب تسميتها وأبرز الفترات التاريخية التي مرت بها بدءاً من حكم الأدارسة إلى حكم الأمير عبد القادر. ويهدف هذا العرض عامة إلى التعريف بمدينة ندرومة باعتبارها إحدى أهم وأكبر الأقطاب التاريخية والعواصم الإسلامية في الجزائر خلال العصر الوسيط.

الكلمات المفتاحية: ندرومة، تلمسان، الجزائر، الموقع الجغرافي، الطابع التاريخي.

Resumen

Introducción a las características geográficas del entorno de la ciudad de Nedroma, y su vinculación histórica con Tlemecén, capital política y cultural de la región. Se describe de forma preliminar la geología, la hidrología y el terreno donde se ubica la actual medina de Nedroma. En el segundo punto, se relatan los hitos más importantes de cada periodo histórico desde los orígenes hasta la época del emir 'Abd al-Qādir, con una pequeña nota sobre la etimología de la localidad. El objetivo del presente trabajo es resaltar la importancia de Nedroma en la historia del occidente argelino, y su valiosa ubicación geográfica.

Palabras clave: Nedroma, Tlemecén, geografía de Argelia, historia de Argelia.

إن دراسة جغرافية وتاريخ المدن يساهم بشكل مباشر في إبراز الوجه والعلاقة المتبادلة بين مظاهر سطح المكان والتاريخ، والمستوى الحضاري الذي وصلت إليه الحواضر قديماً في مختلف المجالات، حيث يرتبط النشاط البشري ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الطبيعية التي تلفه باعتبارها المورد الأساسي الذي يعتمد عليه في الحصول على غذائه ومسكنه، هذه العلاقة الوطيدة تطفن لها مخططوا المدن قديماً، فعمدوا إلى الاهتمام بها أشد الاهتمام لاختيار المكان الأنسب لوضع أسس مدنهم، وتعد مدينة ندرومة واحدة من المدن التي اهتم مخططوها بهذا الجانب فقد وفر لها موقعها الظروف المناسبة لتكون حاضرة مرموقة .

1- اللوحة الجغرافية :

كمثيلتها تلمسان، احتضنت مدينة ندرومة إرثاً أصيلاً وتاريخاً مجيداً اكتسبتهما من الموقع الذي جعل منها مدينة مشهورة ذائعة الصيت بين حواضر المغرب الإسلامي قديماً، ومكاناً مغرباً للاستيطان والإقامة، فكانت كمدينة تلمسان محط اهتمام وتنافس سلاطين المغرب الإسلامي، لذلك لحق بها ما لحق بتلمسان من أزمات سياسية، ولهذه الأسباب ذكرت هي الأخرى في كتب الرحالة والمؤرخين أمثال أبو عبيد الله البكري والحسن الوزان ومارمول كربخال وغيرهم .

1-1 الموقع :

تقع مدينة ندرومة في الشمال الغربي من منطقة تلمسان عند خط طول 1° و74 دقيقة شمالاً ودائرة عرض 35° و1 دقيقة شمالاً¹، تحتل موقعاً استراتيجياً عزز جانبها الأمني، وساعدها في الدفاع عن نفسها ضد الغزاة، حيث تمتد على طول جنوب سفح جبل فلاوسن بارتفاع يتراوح ما بين 360م و470م فوق سطح البحر²، ويعد هذا الجبل الأكثر ارتفاعاً في سلسلة جبال ترارة، إذ يبلغ ارتفاعه حوالي 1200م. تتموضع ندرومة بالقرب من سواحل البحر الأبيض المتوسط، حيث لا تبعد عنه إلا بمسافة ست كيلومترات وفق خط مستقيم، تتوسط مدينة تلمسان ومدينة وجدة، الأمر الذي

1 الجريدة الرسمية، مرسوم تنفيذي رقم 402/09، مؤرخ في 12 ذي الحجة 1430هـ الموافق لـ 29 نوفمبر 2009 متضمن إنشاء القطاع المحفوظ للمدينة العتيقة ندرومة وتعيين حدوده، العدد 71، الجزائر 2009، ص: 5-6

2 محمد رابح فيسة، المنشآت المرابطة في مدينة ندرومة، دراسة تاريخية أثرية، رسالة ماجستير، تخصص الآثار الإسلامية، معهد علم الآثار، جامعة الجزائر، 2005، ص: 13.

مكَّنها من أن تكون همزة وصل بينهما في الميدان التجاري منذ القدم، تحدها شمالاً مدينة الغزوات الساحلية، وجنوباً يحدها جبل فلاوسن، أما غرباً فتحدها مدينة مغنية وشرقاً دائرة فلاوسن. تبلغ مساحتها حوالي 140 كلم²، أما عدد سكانها فقد بلغ في آخر إحصاء لسنة 2008 حوالي 32498 نسمة³، من أهم أسماء أحيائها نذكر: حي بني زيد والتربيعة وبني عفَّان والخربة.

من بين المظاهر الجيولوجية للموقع أن الكتلة الجبلية التي توجد عليها مدينة ندرومة تكوَّنت عند نهاية عصر الأوليغوسين، وقد استمرت خلال عصر الميوسين بأكمله الذي كان يتصف بعدم ثباته وكثرة اضطراباته، معرضاً المنطقة لعملتي الرفع والهبوط في القشرة الأرضية، ما يحدث تنوعاً في طوبوغرافيتها وقد كان هذا التنوع واحداً من أسباب تنوع النشاط البشري في المدينة.⁴

2-1- التضاريس:

تقع مدينة ندرومة في قلب سلسلة جبال ترارة، تتميز بجيوب زراعية على هيئة وديان وسهول واسعة ذات تربة خصبة توحى بوجود مياه وفيرة، ينتهي مناخها إلى مناخ البحر الأبيض المتوسط المتميز باعتداله ووضوح الفصول الأربعة فيه، تتسم درجات الحرارة بالاعتدال في المناطق الساحلية، إذ تنخفض تحت 12م، وتزداد في الانخفاض بالمناطق الجبلية المحيطة بالمدينة لتصل إلى 5م، ومردُّ ذلك إلى الارتفاع عن مستوى سطح البحر، أما في فصل الصيف فإن درجات الحرارة تتصف بالاعتدال في المناطق الساحلية والجبلية، ويُقدر متوسط التساقط على المنطقة ما بين 400 ملم و600 ملم⁵.

تتميز ندرومة بغطاء نباتي عبارة عن غابات كثيفة من أشجار التين والزيتون والثوت البري والخروب وقد انعكست الظروف المناخية بشكل واضح على نشاط سكانها حيث دفعتهم إلى ممارسة زراعة الأرض وتربية المواشي، ومن بين أهم منتجاتهم الحبوب كالقمح والشعير والعسل الذي صدرت منه كميات معتبرة للحواضر والمدن

3 نقلاً عن بلدية ندرومة، إحصاء 2008

4 كاظم موسى محمد الطائي، دور العوامل الجغرافية في البعد الحضاري والاجتماعي لمدينة ندرومة، الملتقى الدولي السادس حول مدينة عبد المؤمن بن علي (مجتمع أنتروبولوجيا وذاكرة)، ندرومة، 2011، ص: 10

5 محمد الزين، العمارة الدينية الإسلامية في منطقة ندرومة من خلال نموذجين: الجامع الكبير وزاوية سيدي محمد بن عمر، دراسة تاريخية وفنية، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الفنون الشعبية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2003، ص: 08

المجاورة، هذا إلى جانب منتجات أخرى مثل الملابس الصوفية والمنسوجات خاصة القطنية التي وصل تسويقها قديماً إلى جميع مدن المغرب الأوسط مثل تلمسان والجزائر، كما تتميز المنطقة أيضاً بسيولها الجارفة في فصل الشتاء.

ومن أهم وديان المدينة وادي الحمراء الذي يمر بشرق المدينة، ووادي الدّمين الذي يمر بغربها، ووادي الثلاثاء الذي يمر بشمالها، قدّم يحيى بن خلدون وصفاً عنها بقوله «.. إنها أعدل الأرض مزاجاً وأفضلها إنتاجاً ما بين إفريقية والسوس الأدنى إلى المغرب الأقصى...»⁶، وتحدث عنها الرحالة حسن الوزان بعد يحيى بن خلدون مشيراً إلى مدى خصوبة تربتها وغناها في قوله: «.. البادية منتجة إلى أقصى حد، فتشاهد حول ندرومة بساتين عديدة وأراض مغروسة بأشجار الخروب التي يأكل الناس ثمارها بكثرة... وندرومة اليوم مزدهرة لكثرة الصناعات فيها ينتجون على الخصوص أقمشة القطن لأنه ينبت بكثرة في الناحية...»⁷، كما قدّم مارمول كاربخال بعد حسن الوزان⁸ وصفاً عن طابعها النباتي بقوله «.. وفي الجبال المجاورة أشجار تدعى الخروب، ثمارها حلوة لدرجة أن السكان يصنعون منها عسلاً يأكلونه طوال السنة مع اللحوم... يحصد السكان كمية من القمح والشعير ويملكون عدداً كبيراً من القطعان ويصنعون ما أجمل في بلاد البربر من أقمشة القطن...»⁹.

ويتضح من الإشارات التاريخية الخاصة بموقع المدينة ما كان لها من ميزات جغرافية وإمكانات اقتصادية عادت عليها بالإيجاب من جانب، وبالسلب من جانب آخر، إذ أصبحت نقطة مغرية للاستيطان البشري بالمغرب الإسلامي آنذاك.

ولا تزال مدينة ندرومة منتجة لحدّ الساعة، ففي المجال الفلاحي يشتغل بعض سكانها في حرث الأراضي الموجودة في السهل الذي يمتد شمالاً مقابل البحر، من

6 يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 84

7 الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقية، ط2، ج2، ترجمة محمد حجي، ومحمد

الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983، ص: 14

8 مارمول كربخال: وُلد بغرناطة في أوائل القرن 16م، كان جندياً في جيش الملك الإسباني شارلوكان، أُسر بالمغرب الأقصى لمدة سبعة سنوات وثمانية أشهر، تعلم اللغة العربية واللهجة البربرية حتى يتمكن من التواصل مع العرب لنقل الأخبار إلى شارلوكان، ألف كتابين الأول إفريقية والثاني ثورة الموريسكيين، لا يعرف شيء عن تاريخ وفاته، ينظر: مارمول كربخال، إفريقية، ج2، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون، دار النشر المعرفة، الرباط، 1988، ص: 4-5

9 مارمول كربخال، المصدر نفسه، ص: 295

جملة منتوجاتهم القمح والشعير والطماطم، أضف إلى ذلك اهتمامهم بغرس أشجار الزيتون الأمر الذي جعل المدينة رائدة في إنتاج زيت الزيتون إلى حد إقامة طاحونتين لطحن حبات الزيتون، أما المجال التجاري فمنتعش هو الآخر، إذ يوجد بالمدينة ورشات لصناعة الألبسة والأحذية وكذا الأثاث .

- اللوحة التاريخية :

تعتبر مدينة ندرومة واحدة من الحواضر الإسلامية الزاخرة بإرث معماري وعمراني إسلامي أصيل، ينم عن عبقرية الأسلاف الذين سكنوها قديماً، وكباقي تصاميم المدن تحتوي ندرومة على جامع كبير في مركزها، وعلى أزقة ضيقة وملتوية وسوق ومنازل .

1-2 أصل التسمية :

أرجع الرحالة حسن بن محمد الوزان تأسيسها إلى الرومان، إذ اختاروا لها موقعا وتصميما ماثلاً لتصميم مدينة روما، وبأن اسمها مشتق من كلمة «ند»، باللاتينية «similis» أي مثيل وشبيهه¹⁰، لكن لا يوجد أي شاهد مادي يدعم فكرة تواجد الرومان بالمدينة حسب معاينتنا لها، الأمر الذي يؤكد أنها أحدث من العهد الروماني .

ذكر اليعقوبي مدينة ندرومة في كتابه البلدان قائلاً «... وآخر مملكة بني محمد بن سليمان عبد الله بن الحسن بن الحسن مدينة فالوسن وهي مدينة عظيمة أهلها بطون البربر...»¹¹، وأشار كذلك أن ندرومة حلت محلها لينتقل اسم فالوسن إلى الجبل الحاذي لها، وهي كلمة مركبة من قسمين: فلأ وتعني فوق، وأوسن تعني قرية¹²، وهناك من ذكر أن معنى اسم ندرومة «نظروا الماء» وأن هذه العبارة نطق بها الفرسان العرب «نظروا» الذين أتوا من تلمسان نحو هذه الناحية، ولما رأوا ماء البحر نطقوا بهاتين الكلمتين التي أصبحت تنطق فيما بعد بندرومة¹³.

ذكر البكري أول مرة اسم ندرومة في القرن 5هـ/11م في وصفه للمدينة بقوله «... ومدينة ندرومة في طرف جبل تاجرا بغربها وشمالها بسائط طيبة ومزارع، وبينها وبين البحر عشرة أميال، ساحلها ومرساها وادي ماسين كثير الثمار، مأمون عليه

10 لحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ص: 13

11 أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن واضح اليعقوبي، مصدر سابق، ص: 196

12 René Basset, *Nedromah et Les Traras*, Paris, Ernest Leroux Editeur, 1901, pag. 5-7.

13 آنسة بركات، محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية، منشورات المتحف الوطني

للمجاهد، الجزائر، 1995، ص: 310.

حصنان ورباط حسن مقصود يُتبرك به إذا سرق أحدهم فيه أو أتى فاحشة لم تتأخر عقوبته...»¹⁴، وبعد قرن من الزمن قَدَّم الإدريسي وصفا لمدينة ندرومة قائلاً «... مدينة كبيرة عامرة أهلة ذات سور وسوق موضعها في سند ولها مزارع كثيرة ولها واد يجري في شرقها وعليه بساتين وجنان وعمارة وسقي كثير...»¹⁵.

هذا الوصف يؤكد أن المدينة كانت فعلاً تتميز بخصائص العمران المدني، إذ يقدم لحة عن مدينة ندرومة في شقها الفلاحي والعمراني ما يؤكد أنها كانت واحدة من المدن المرموقة بالمغرب الأوسط، فقد استقطبت السكان من جميع الحواضر، وأصبحت المكان المفضل لإقامة العامة من الناس والخاصة وتحدّث عنها أيضاً أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق الذي عاش أيام الدولة الموحدية، وصاحب مؤلف أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، ومؤلف المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب الذي أورد فيه حديثاً عن قبيلة كومية يذكر فيه اسم ندرومة قائلاً «... كومية وفقهم الله، لهم من الفخاذا خمسة وعشرون من ذلك بنو مجبر وبنو عابد وبنو يزيد وزغادة الساحل وبنو يانجسن... وأهل قرية ندرومة...»¹⁶.

كما أشارت بعض المصادر إلى تفضيل بعض العلماء السكن في هذه المدينة وإلى غناها الطبيعي من بينهم الفقيه الولي الصالح أحمد بن الحسن الغماري الذي قال عنه ابن مريم «... وبقي بندرومة زمناً طويلاً يغيب بالنهار ويبيت بالجامع الكبير...» ومحمد الحرشاوي الندرومي¹⁷.

2-2 أهم الفترات التاريخية التي مرت بها مدينة ندرومة العتيقة :

يتمد تاريخ مدينة ندرومة العتيقة إلى فترات إسلامية مبكرة، وذلك بدءاً من فترة تكون دولة الأدارسة إلى غاية فترة حكم الأمير عبد القادر، وهذا عرضٌ موجزٌ لأهم تلك الفترات الإسلامية التي مرت بها المدينة :

14 أبو عبيد الله البكري، مصدر سابق، ص: 80

15 أبو عبد الله محمد بن إدريس الحسني الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج 02، ج 01، مكتبة الثقافة دينية، القاهرة، 2002، ص: 534

16 أبو بكر الصنهاجي البيذق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص: 51

17 ابن مريم الشريف المليتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء يتلمسان، تحقيق محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية 1908، ص: 31

ندرومة في فترة الأدارسة :

حسب ما أورده اليعقوبي المتوفى سنة 284هـ/897م أي في الفترة الزمنية التي حكم فيها الأدارسة هذه الجهة من المغرب الإسلامي، أن مدينة ندرومة كانت إبان القرن التاسع الميلادي تدعى فلوسن ولم تكن تحمل اسم ندرومة، وأنها كانت آنذاك عاصمة النواحي المجاورة وآخر مدن مملكة محمد بن سليمان ابن عم الإمام إدريس¹⁸، كما كانت تتميز بمكانة حضارية مرموقة.

ندرومة في فترة الفاطميين :

سياسة التوسع التي انتهجتها الدولة الفاطمية دفعت بجيوشها القادمة من مصر إلى اتخاذ تيهرت العاصمة لهم، الأمر الذي استنكره أموي الأندلس خوفاً من أن يطالهم ذلك التوسع، فقاموا بجمع قبائل المغرب الشرقي بما فيهم ندرومة ومدتهم بالسلاح لمجابهة التوسع الفاطمي، لكن ما لبث أن أصبح الصراع داخلية بين قبائل النواحي، وذلك بين الحسن بن أبي العيش حليف الأدارسة وموسى بن أبي العافية الزناتي حليف الأمويين انتهت بإشعال حرب دامية بينهم¹⁹، وهو ما جعل من القبائل الصغيرة التي من بينها ندرومة محلّ صراع.

ندرومة في فترة الحمّادين :

بعد انتقال الفاطميين إلى مصر حلّ الحمّاديون محلهم، ووضعوا أيديهم على المغرب الأوسط وندرومة واحدة من تلك القبائل التي عاشت ما عاشته قبائل المغرب الأوسط من غزو وسيطرة واستيلاء من طرف الحمّاديين، احتدم الصراع الحمّادي الزناتي إبان حكم الناصر بن علناس وابنه عبد العزيز²⁰ ففي غزوهم للمدن المهمة في المغرب الإسلامي كأغادير وفاس كانوا يحتلون القبائل المهمة كندرومة.

ندرومة في فترة المرابطين :

يقول صاحب الاستقصاء أنه لما دخلت سنة 454هـ/1061م استفحل أمر يوسف

18 أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن واضح اليعقوبي، مصدر سابق، ص: 196

19 ابن خلدون عبد الرحمن، مصدر سابق، مج06، ص: 126

20 رشيد بورويبة، الدولة الحمّادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية

الجزائرية، الجزائر، 1977، ص: 15-16

بن تاشفين بالمغرب الإسلامي جداً، واتسعت رقعة حكمه والبلاد التابعة لسلطته، ورسخت قدمه في الملك فسمت همته إلى بناء مدينة يأوي إليها تكون حصناً له ولأرباب دولته، فاشترى موضع مراكش ممن كان يملكه من المصامدة...»²¹. ولا شك أن مدينة ندرومة قد طالها مدّه العسكري بحكم وجودها بالمغرب الأوسط الذي امتد إليه نفوذ السلطان يوسف بن تاشفين، لأنه أراد توحيد المغربين الأوسط والأقصى تحت رايته في القرنين الخامس والسادس الهجري الموافق للقرنين الحادي عشر والثاني عشر ميلادي، تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جدها على درجة كبيرة من الأهمية، إذ كان له بها أنصار لذلك أسس فيها مسجداً جامعاً، وقد أرجع أيضاً الأستاذ رشيد بورويبة بناء سور المدينة الذي ذكره البكري إلى المرابطيين²²، هذان البناءان أضافا أهمية للمدينة، ورقياً حضارياً أخذ يتعاظم شأنه إلى غاية سقوط الدولة المرابطية بيد الموحدين، باعتبارهما من بين التفاصيل العمرانية التي ترافق الحواضر المرموقة اجتماعياً.

ندرومة في فترة الموحدين :

لقد حظيت ندرومة بمكانة مرموقة واهتمام خاص من طرف عبد المؤمن بن علي، إذ انطوت تحت حكمه قبل تلمسان نفسها، وجعل منها مكاناً آمناً وحصناً حصيناً بأسوار القصبية، ذلك ما زاد في ازدهارها وكثرة سكانها الذي وجده مورداً بشرياً قوياً ألقفه بجيشه، لقد قدمت ندرومة دوراً بارزاً في المعركة الفاصلة بين إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي، والتي انتهت بمقتل السلطان المرابطي في 27 رمضان 539هـ/1144م، وبسقوط الدولة المرابطية²³، وقد كان لهذه المساعدة أثر كبير في نفسية عبد المؤمن بن علي، إذ أقطع السهول الممتدة بين تلمسان ووهران لبني عبد الواد، جاعلاً من يغمراسن بن زيان والياً عليها، وهو منصب لم يكن يتولاه سوى البيت الحاكم²⁴.

21 أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولتان المرابطية والموحدية، ج2 تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ص: 22

22 Rachid Bourouiba, *L'Architecture Militaire de L'Algérie Médiévale*, Argel, OPU, 1983, p. 93.

23 عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار

المعارف، مصر، 1971، ص: 131

24 شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، العصر الإسلامي، ترجمة محمد مزالي، البشير

ندرومة في فترة الصراع الزياني المريني :

رغم كون الزيانيين والمرينيين أبناء عمومة إلا أنهم كانوا في صراع دائم، وقد أصاب مدينة ندرومة في هذا الصراع ما أصاب تلمسان، بحكم تواجدها على طول الطريق الذي يسلكه بنو مرين إلى تلمسان العاصمة، حيث خضعت المدينة للقانون التقليدي من تقتيل الغالب للمغلوب، وأرسل المرينيون فرقه العسكارية لمدينة ندرومة لإخضاعها، لكنها لم تستسلم بل بقيت تابعة لحكم البلاط الزياني، وذلك راجع لرضى السكان عن حكم السلطان يغمراسن، ذكر بن أبي زرع أن أبا يعقوب يوسف قرّر احتلال تلمسان مرة ثانية قائلاً «... وفي سنة ستين وتسعين وستمائة غزا أمير المسلمين يوسف بلاد تلمسان خرج إليها... حتى نزل مدينة ندرومة فحاصرها وشدّ في قتالها أياماً ثم ارتحل عنها...»²⁵.

وفي المرة الثانية التي قرّر فيها أبو يعقوب يوسف احتلال تلمسان خرج إليه عثمان بن يغمراسن لكنه انهزم ودخل المدينة وتحصن فيها، فقفل أبو يعقوب يوسف راجعاً إلى فاس تاركاً أخاه أبو يحيى يحارب ندرومة، هذا الأخير تحدّث عنه بن أبي زرع قائلاً «... كان لا يرفع عنها يدا بالغارات فضاقت أهل ندرومة بذلك ذرعاً...»²⁶.

دفعها للاستغاثة بالسلطان عثمان بن يغمراسن، لكنها لم تتلق منه جواباً لأنشغاله بحملات تآديبية في بلاد بني توجين لمساعدتهم أعدائه، فانصاعت تحت إمرة يوسف أبو يعقوب، استاء لهذا الأمر كثيراً عثمان بن يغمراسن، وقد تحدّث عن ذلك يحيى بن خلدون واصفا حالته النفسية جراء فقدانه لمدينة ندرومة بعد سقوطها بيد المرينيين قائلاً «... فاضطربت أرجاء حضرته نارَ فتنة...»²⁷.

ندرومة في فترة الأتراك :

بعد أن دبّ الضعف داخل الدولة الزيانية، انحصرت سلطتها في تلمسان وبعض نواحيها فقط أما البقية فقد نصبت كل عشيرة نفسها دويلة همّها التوسع على حساب جارتها، آنذاك كانت ندرومة شبه مستقلة، حيث كانت تحت مراقبة قبيلة مطغرة، تحدّث عنها حسن محمد الوزان قائلاً «... كان السكان... تقريباً أحراراً...، فالملك لا يستطيع أن يحصل على أي خراج من المدينة لأن العمال الذين يوفدهم إنما

بن سلامة، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978، ص: 200-201

25 أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص: 385

26 أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص: 386

27 يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 120

يقبلهم السكان إذا رضوا عنهم... لكنهم كانوا يرسلون أحياناً هدية إلى الملك حتى يتمكنوا من إدخال سلعهم إلى مدينة تلمسان...»²⁸، نجمت هذه الأوضاع عن الضعف الداخلي والفرغ السياسي الذي ميز الدولة الزيانية في آخر أيامها، مما أدى إلى تعرضها للغزو الإسباني، ودفع بها في نهاية المطاف إلى الاستنجد بالأخوين عروج وخير الدين اللذين حرّرا تلمسان من قبضة الإسبان.

عاشت ندرومة في هذه الفترة جو الصراع بين العثمانيين وسلطين المغرب الأقصى، إذ أصبحت محل نزاع بينهم، فملك المغرب حاول تجنيد أبناء المنطقة الواقعة غرب تلمسان إلى جانبه ما دفع بالداي حسين إلى التدخل شخصياً، فخرج على رأس حملة عسكرية وعند وصوله استقبله الأهالي، فرضي بالأمر لكنه فرض عليهم إتاوة سنوية من القطن مقدارها ثلاثون حملاً²⁹.

ندرومة في فترة الأمير عبد القادر:

حاول الأمير عبد القادر تكوين أسس دولة إسلامية جديدة على أنقاض الحكم العثماني لكنه اصطدم بدخول الاستعمار الفرنسي، فقام بتنظيم مقاومات شعبية بمختلف مناطق الجزائر، لقد استطاع الجنرال الفرنسي بيدو Bèdeau بمهارته العسكرية وحنكته الدبلوماسية أن يخضع عدداً كبيراً من المدن الحدودية وندرومة واحدة من تلك المدن، الأمر الذي دفع بالأمير عبد القادر لمواجهة، وبمجرد وصوله إلى ندرومة عاد لأهالي المدينة لإخلاصها القديم وطلبت منه العفو واستأذنته أن تغسل عارها في ميدان الشرف، في شهر مارس وأفريل من سنة 1842³⁰، عاشت مدينة ندرومة وهنين وضاف نهر تافنة اشتباكات عنيفة بين الأمير عبد القادر والجنرال بيدو، لكن النجاح الكبير الذي حققه الجنرال الفرنسي لامورسيار Lamoricière في مدينة معسكر ونواحيها حال دون استكمال الاشتباكات إذ عاد إلى مدينة معسكر³¹، ليبقى بعد ذلك مصير مدينة ندرومة مجهولاً إلى أن جدّدت فرنسا عزمها من سنة 1842م وقامت باحتلالها نهائياً.

28 الحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ص: 14

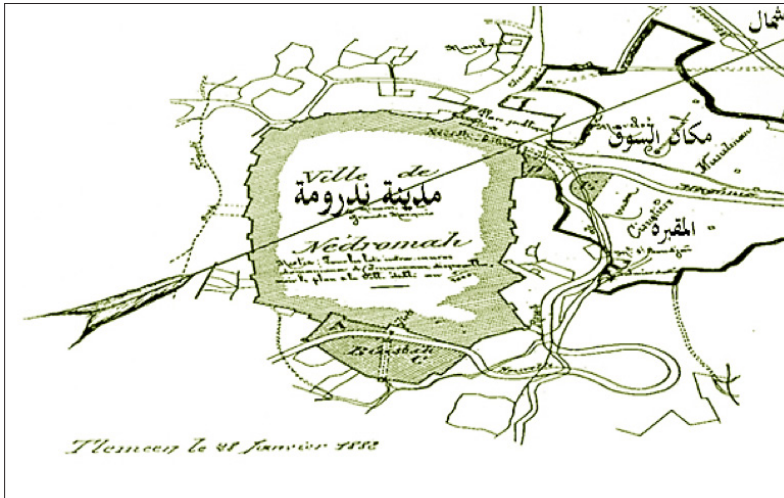
29 يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص: 216

30 شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص: 196

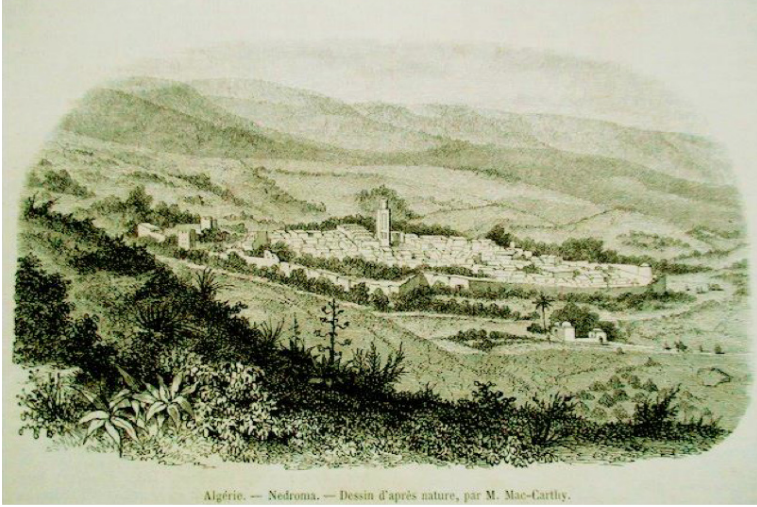
31 المرجع نفسه، ص: 197



الصورة رقم 01: تبين موقع مدينة ندرومة في دولة الجزائر.



المخطط رقم 01: يبين حدود التصميم العمراني لمدينة ندرومة سنة 1882، عن Abderrahmane Khelifa, Honaine Ancien..., *Op. Cit*, p. 180



الصورة رقم 02: تبين رسم لمنظر عام لمدينة ندرومة في القرن 19م، من طرف ماك كارتني
(MacCarthy)، عن: gravures-anciennes.fr



الصورة رقم 03: تبين المنظر الحالي لجزء من مدينة ندرومة الممتد فوق سفح
جبل لفلاوسن.



الصورة رقم 04: تبين منظر للجامع المرابطي بمدينة ندرومة العتيقة .

